الكتاب المقدس والتقليد

الأب نجيب ابراهيم

بعد الانتهاء من قراءات القداس يقول القارئ: «كلام الرب» ويجيب المؤمنون: «الشكر لله». هناك إذا اساس إيمانيّ مرتبط بعمادنا وانتمائنا الى الكنيسة يدفعنا لاعلان إيماننا بأنّ الكتاب المقدّس هو كلام الله.

ولكن بأي معنى هو كلام الله بالنسبة لي؟

هل يقتصر كلام الله على الكتاب المقدّس فقط، أم هناك مصدر آخر للوحي الإلهيّ؟

قبل الولوج بموضوع مصادر الوحي الإلهيّ، علينا أنْ نرى كيف يعبّر الكتاب المقدّس نفسه عن مفهوم الوحي.

مفهوم الوحي في الكتاب المقدّس

يستعمل الكتاب المقدّس عدة كلمات للتعبير عن الوحي الإلهيّ مثل "كَشَفَ"، "رأى" و"سَمِع". إنّها كلمات بشريّة حسّية للتنويه عن معرفة فوق طبيعية. لذلك لا يجب فهم هذه الكلمات بالمعنى الحرفيّ، لأنّها تعبّر عن لقاء بين الله والإنسان، ينتج عنه معرفة إلهية. يكشف الله عن ذاته كشخص حيّ، خالق وربّ الكون، القدّوس الذي يدعو الناس لمعرفته وخدمته بالمطلق.

ولكن العبارة الأكثر استعمالاً في ما يخصّ الوحي الإلهيّ هي «كلام الرّبّ». يصف إرميا، نبيّ الكلمة، دعوته قائلاً: «فكانت كلمة الرّبّ إليّ قائلا ...» (١ : ٤). فأخذت «كلمة الربّ» أكثر فأكثر ملامح الشخص.

غالباً ما تُذكر هذه العبارة في الكتاب المقدّس لتنير أحداثاً معيّنة في تاريخ الخلاص. ومع الزمن اكتسبت أبعاداً كبيرة لتصبح مبدأ حياة شعب الله. فكان الوحي الإلهيّ أقوالاً وأعمالاً مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً.

الوحي الالهي

يعتقد بعض المسيحيين أنّ الوحي الالهي يقتصر على الكتاب المقدّس. ومن الأقوال الشائعة "المسيحية دين الكتاب". يصحّ هذا القول إذا اعتبرنا أن الكتابة التي نؤمن بها هي المسيح. المسيحية هي حقاً دين الشخص، لأنّ كلّ الوحي الإلهيّ تمّ بيسوع المسيح. لذلك يؤكد التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية قائلا:

«الكتب الإلهية كلّها كتاب واحد، وهذا الكتاب الواحد هو المسيح، "إذ ان الكتب الإلهية كلها تتكلّم عن المسيح، والكتب كلها تتمّ في المسيح"» (١٣٤).

المسيح هو كلمة الله المتجسد، ملء الوحي الإلهي. خلال حياته الأرضية لم يكتب المسيح شيئا، بل "قال" و"فعل". بشّر يسوع بملكوت الله ودعا الاثني عشر ليكونوا معه ويتبعوه، وقام بالآيات، والآية الكبرى هي موته وقيامته من بين الاموات. بأقواله وأفعاله أتمّ يسوع الوحي الإلهيّ، الذي كان منذ البدء على هذه الصورة.

«حسُن لدى الله، لفرط حكمته ومحبته، أن يوحي بذاته ويعلن سرّ مشيئته من أنّ البشر يبلغون الآب، في الروح القدس، بالمسيح، الكلمة المتجسد، فيصبحون شركاءه في الطبيعة الإلهية» (تعليم الكنيسة ٥١).

الوحي هو إذا فعل محبّة الله لنا، هو الذي يريد أن نكون معه دائما. ولكن الله بحكمته كشف عن ذاته من خلال نظام تربويّ إلهيّ يقوم بالأعمال والأقوال، التي ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا بنوع أن الأعمال التي حققها الله في تاريخ الخلاص تبرز العقيدة والحقائق التي تعبّر عنها الأقوال وتدعمها، بينما الأقوال تُعلن الأعمال وتوضّح السرّ الذي تحويه. اما الحقيقة الخالصة التي يطلعنا عليها الوحي، سواء عن الله ام عن خلاص الانسان، فانها تسطع لنا في المسيح الذي هو وسيط الوحي بكامله وملؤه في آن واحد (راجع تعليم الكنيسة ٥٣).

مراحل الوحي

قبل أن يكون كتابا، كان الوحي عمل الله في الكشف عن ذاته، أولاً من خلال خلائقه. أول كتاب نقرأ فيه عمل الله هو الخليقة. هذه تكشف عنه وتسبّحه، وما دور الانسان سوى أن يكون لسان حال المخلوقات. لذلك بادر الله بمحبّته وعنايته بالكشف عن ذاته لأبوينا الأوّلين. ولكن الخطيئة ذهبت بالانسان بعيدا عن الشركة مع الله، فصار الانسان جاهلا لا يعرف ذاته ولا يعرف الله.

ولكن محبّة الله أكبر من كل خطايا البشر، لذلك أبرم عهداً أبدياً مع نوح من أجل الحياة. ثم اختار إبراهيم وقطع عهداً معه ومع نسله ليتبارك به جميع البشر. ومن نسله أنشأ شعبه الذي أعطاه الشريعة للحفاظ على عهد الحرية والعبادة الحق. تمّت هذه الشريعة بوساطة موسى. ومن ثمّ أعدّ الله شعبه بالأنبياء لقبول ملء الوحي بالمسيح، الذي به تنال الخلاص البشريّة جمعاء.

تناقل الوحي الإلهي

«إذهبوا في الأرض، كلّها وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين» (مرقس ١٥).

يسوع المسيح القائم من بين الأموات أمر تلاميذه بإعلان البشارة الى كلّ البشر. وهذا ما قام به التلاميذ بقوة الروح القدس. وما تصميم سفر أعمال الرسل سوى التأكيد على أنّ الرسل قد قاموا فعلا بهذه الرسالة، فوصلت البشرى السارة بواسطة الرسل إلى أقاصي الأرض.

قبل أن يكون نصاً مكتوباً بإلهام الروح القدس، كان الإنجيل بشرى سارة يُنقل شفهياً من قبل الرسل الذين تسلّموا من القائم من بين الأموات مهمة الرسالة. فكانت حياتهم الرسولية هي الشهادة

الأولى للإنجيل:

«نقل الإنجيل، وفقاً لأمر الربّ، جرى على نوعين:

شفهياً: على لسان الرسل الذين نقلوا، عن طريق بشارتهم الشفهيّة، أو سيرتهم النموذجيّة، أو تنظيمهم القانونيّ، كلّ ما تسلّموه من المسيح من كلام سمعوه، أو عيش ألِفوه، أو أعمال عاينوها. كما نقلوا أيضا كلّ ما تلقّنوه من إيحاءات الروح القدس.

كتابةً: على يد هؤلاء الرسل ومعاونيهم الذين دوّنوا بشارة الخلاص هذه، بإلهام من الروح القدس عينه» (تعليم الكنيسة ٧٦).

الكتاب المقدّس والتقليد

يظهر من خلال نص تعليم الكنيسة (٧٦) أنّ الوحي هو نبع واحد ينبجس منه التقليد والكتاب المقدّس على السواء. التقليد هو تعليم الرسل وخلفائهم الاساقفة. لذلك يحتاج المسيحيّ إلى التقليد والكتاب المقدّس على السواء ليعيش حياة مسيحية حقيقيّة.

لا يكفي التقليد، كما لا يكفي الكتاب المقدّس وحده. والحق أنّ الكتاب المقدّس هو كتاب الكنيسة، لا يمكن أن يُقرأ ويُفهم إلا في الكنيسة، التي تسلّمت من يسوع والرسل الكتاب المقدّس والتقليد على السواء.

الكنيسة لا تعلّم أبدا ما يخالف الكتاب المقدّس، لا بل تشجّع كلّ مسيحي على قراءته في شركة مع الكنيسة، لأنّه لا يمكن قبول الانجيل ورفض الكنيسة كما يدّعي البعض.

أخيرا يجب ألا نخلط بين التقليد الرسولي و"التقاليد" اللاهوتية، والتنظيمية، والتعبّدية التي نشأت عبر الأزمان في الكنائس المحليّة. التقليد المقدّس هو ما يصدر عن الرسل، الذين نقلوا ما تلقّنوه من يسوع ومن الروح القدس.

الحياة المسيحية مبنية إذا على الإيمان بالوحي الإلهيّ الذي يصل إلينا من خلال التقليد والكتاب المقدّس. هناك ترابط حيويّ بين هذين المصدرين للوحي الإلهي، ما يدفعنا للتنبّه إلى أهمية الحياة في الكنيسة، ليكون باستطاعتنا فهم الكتاب المقدّس.

قلنا في بداية هذا المقال أنّ الكتاب المقدّس هو كلام الله والآن نزيد على ذلك أنّ كلام الله يصلنا من خلال الوحي الإلهيّ الذي هو التقليد والكتاب المقدس.

وأخيرا أترك الكلام لقداسة البابا بندكتس السادس عشر، الذي يكرّس تعليمه في هذه الأيام لمفهوم التقليد في الكنيسة:

«باستطاعتنا القول أنّ التقليد ليس مجرّد نقل كلمات، أو مجموعة من الأشياء البالية. التقليد هو ذاك النهر الحيّ الذي يصلنا بالينابيع الحاضرة دائما فيه. هو النهر الكبير الذي يقودنا الى باب الحياة الأبدية. لذلك يتحقّق دائما في هذا النهر الحيّ كلام الربّ: "هاءنذا معكم طوال الأيام إلى نهاية العالم" (متى ٢٨: ٢٠)» (من كلمة المقابلة العامة ٢٦ نيسان ٢٠٠٦).